

٢- أبو تمام بين أعدائه وأصدقائه

للأستاذ دريني خشبة

في أخبار أبي تمام لأبي بكر الصولي أن أعداء أبي تمام احتجوا فيما احتجوا به على سرقته بما رواه^(١) أحمد بن أبي طاهر أبو الفضل الكاتب قال : دخلت على أبي تمام وهو يعمل شعراً ، وبين يديه شعر أبي نواس ومسلم ، فقلت : ما هذا ؟ قال : اللات والعزى ، وأنا أعبدهما من دون الله منذ ثلاثين سنة !

وقد دافع الصولي عن أبي تمام فقال : وهذا إن كان حقاً فهو قبيح الظاهر ، ردى اللفظ والمعنى ، لأنه كلامٌ ماجن مشفوف بالشعر والمعنى أنهما شغلاني عن عبادة الله عز وجل ثم انطلق الصولي بنفى تهمة الكفر عن أبي تمام ، وفاته أن المقصود بالرواية هو إكباب أبي تمام على شعر أبي نواس ومسلم بتهب من معانيهما ما يشاء . وقد دافع الصولي عن أبي تمام دفاعاً مجيداً ، إلا أنه ليس — نى نظرى على الأقل — أبجد من اتهام الآمدى^(٢) له ، واستقصائه سرقته رجماً واحدة فواحدة إلى أصحابها ، هذا وإن اشتط الآمدى وأفرط في ذلك إفراطاً يبدو من نفاياه تجنيه على أبي تمام ، وظلمه له أحياناً ... والذي يعنى الآمدى من سخطنا هو إلمامه الواسع بأشعار العرب ، ومقدرته المدهشة في رد السرقات إلى أصولها من أشعار قائلها ، وأستاذيته التي تفجلى في إدارة حوارهِ بين صاحب أبي تمام وصاحب البحرى ، والفصول القيمة التي أظهر فيها سقطات أبي تمام في الموازين والنحو والبيان والبديع ، وما إلى ذلك كله من نواحي الضعف في شعره

والذى يدرس أبا تمام في هذين السكتين الفريدين من كتب النقد العربى ، يرى كيف أن الناس — على حد ما ذكره المسعودى في مروج الذهب^(٣) كانوا فيه طرفي تقيض ... متمصلاً به يعطيه أكثر من حقه ، ومنحرف عنه معاند له ... أو كما قال أبو الفرج صاحب الأغاني^(٤) : وفي عصرنا هذا من يتمصب لأبي تمام ، فيفرط ، حتى يفضل على كل سالف وخالف ، وأقوام

يتعمدون الردى من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ، ويستعملون الفجة والسكابة في ذلك ؛ وعبارة أبي الفرج توحى بما كان يشمره لأبي تمام من إعجاب . وقد ذكرنا في كلمتنا ما كان يقوله دعبل في شعر أبي تمام ، من أن ثلثه مرققة ، وثلثه غث ، وثلثه صالح . وقد روى الصولي بعد هذا الخبر عن دعبل أنه كان يقول : لم يكن أبو تمام شاعراً . وإنما كان خطيباً ، وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر

وقد أشرنا إلى خصومة ابن الأعرابي ، تلميذ الفضل الضبي والكسائي ، لأبي تمام ، وقد وعت بطون كتب النقد أعاجيب شتى من أبناء تلك الخصومة تعد من النوادر في أخبار الخصومات الأدبية : فمن ذلك ما ذكره الطومى قال : وجه بي أبي إلى ابن الأعرابي لأقرأ عليه أشعاراً ، وكنت معجباً بأبي تمام . فقرأت عليه من أشعار هذيل ، ثم قرأت أرجوزة أبي تمام على أنها لبعض شعراء هذيل :

وعاذل عدلته في عذله فظن أنى جاهل من جهله
حتى أتممتها ، فقال : اكتب لي هذه ، فكتبتها له ، ثم قلت : أحسنه هي ؟ قال : ما سمعت بأحسن منها ! قلت إنها لأبي تمام ! فقال : خرق خرقاً أى مرق ، مرق !
ومع ذلك ، فقد كان ابن الأعرابي ، هذا الحجة الفاضل ، يحفظ كثيراً من شعر خصمه أبي تمام ، ويتمثل به ، وهو لا يدري أنه له ؟

وعلى هذا النحو كان الناس في عبقري الشعر العربى . وعلى هذا النحو ، لا يزال الناس في أبي تمام !

والحق الذى لا يمارى فيه إلا مكابر ، أن أبا تمام كان نادرة زمانه في الشعر العربى ، بل إنه لا يزال نادرة هذا الشعر حتى اليوم ، فليس في شعراء العربية من استطاع أن يصور كما صور أبو تمام . وليس فيهم من استطاع تلوين صورته كاللونها هذا الشاعر المقتن المبدع^(٥) ، وذلك لا يعارض ما أثبتته عليه خصومه

(١) مما نذكره معجبين ، في هذا الصدد ، ذلك الفصل القيم ، أو تلك الفصول القيمة ، التي جلي بها الدكتور الفاضل شوقي ضيف الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول مقدره أبي تمام على التصور ، وذلك في رسالته الثمينة « الفن ومذاهبه في الشعر العربى » تلك الرسالة التي لا يرى بدا من توجيه أنظار شعراء الشباب إلى ما تضمنته من بحوث عميقة جديدة في الشعر العربى ، منذ الجاهلية إلى الآن . ونرجو أن تسع لنا ظروفنا بمناقشة بعض آرائها التي لا نوافق الأستاذ الفاضل عليها مع اعترافنا بمعظم ما فيها من حسنات .

(١) ص ١٧٢ (٢) الموازنة بين أبي تمام والبحرى

(٣) ج ٢ ص ١٥٣ (٤) ج ١٥ — ص ١٠٠

من سطوره الكثير على معاني الشعراء ، ذلك السطر الذي كان يفتن أبو تمام في إخفاء معالنه وستر مصادره بهذا الهرج الكثير من الصنعة البيانية ، وتلك المركبات البديعة التي كانت تأتي زاهرة باهرة أحياناً ، وملتوية معقدة لا تكاد تفهم أحياناً أخرى : وما ظنك بهذا الالتواء الذي يشتد ، حتى لا يفهمه عبد الله التوزي - أو التوحي ، تلميذ أبي عبيدة والأصمعي ، الذي قال فيه المبرد : ما رأيت أحداً أعلم بالشعر من أبي محمد التوزي ، كان أعلم من الرياشي والمازني ! فقد سئل هذا الرجل عن شعر أبي تمام فقال : فيه ما أستحسنه ، وفيه ما لا أعرفه ولم أسمع بمثله ، فإما أن يكون هذا الرجل أشعر الناس جميعاً ، وإما أن يكون الناس جميعاً أشعر منه ! (الصولي ص ٢٤٥) والعجيب أن يعترف بذلك الصولي نفسه وهو (محامي) أبي تمام وقد ذكرنا كلمته التي أقر فيها بأنه : ليس أحد من الشعراء يعمل المعاني ويخترعها ويتكىء على نفسه فيها أكثر من أبي تمام وأنه متى أخذ المعنى زاد عليه ، ووشحه ببديعه ، وتمم معناه ، فكان أحق به ! وقد ذكر الآمدي أن أبا تمام كان يتعالم في شعره ويتفلسف (الموازنة ص ٢ - ١١) ويصف بمدوحه بالرمز إلى عقائد بعض الفرق الإسلامية ، فيزيد ذلك في غموض شعره ويضاعفه ، ويقعر فهمه على غير من يعرف تلك العقائد ، ويلم بهذه الأسرار : فقله من مدحة في أبي سعيد :

فلو صح قول الجعفرية في الذي تنص من الإلهام خلفك ملهما لا يفهم حتى نعرف أن الجعفرية فرقة من الشيعة تنتسب إلى جعفر بن محمد ويدعون له الإلهام ، كما يحدثنا بذلك التبريزي في شرحه لديوان أبي تمام ، وكما نعرف ذلك من كتب الملل والنحل مثلاً ، ثم قل مثل ذلك فيما يصادفك من أبياته التي تنبئ بالمامه بالذاهب والعلوم والفلك والنحو والمطلق مما كان يجيد الرمز به والإشارة إليه ، متعمداً مرة ، جاريًا على سلفه أحياناً . وكله مما لا نرى أنه يدخل في باب الشعر ، بل هو ، كما ذكرنا في كلامنا عن ثقافت أبي اللؤلؤ تمام من أبي تمام على أهل زمانه المتعالمين . أما ثقافة أبي تمام الحق ، فننحصر في سعة إلمامه بشعر من تقدمه من شعراء الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين والأمويين والعباسيين ، ودقة

فهمه لமானهم ، وحسن اطلاعه على مذاههم . وقد اشتغل فعلاً بالتصنيف الشعري ، يؤيد ذلك ما ذكره البديعي في كتابه « هبة الأيام » ، فيما يتعلق بأبي تمام « من أن له (كتاب الحاسة) الذي دل على غزارة فضله وإتقان معرفته ، وحسن اختياره ، وكتاب فحول الشعراء جاهليين ومخضرمين وإسلاميين ، وكتاب الاختيار من الشعراء . وكان له من المحفوظات ما لا يلحقه فيه غيره ، حتى قيل إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للمرب غير المقاطيع والفصائد (١) . وذكر البديعي كذلك سبب تصنيف أبي تمام ديوان الحاسة ، فقال (ص ١٣٨) : « فإنه لا وصل إلى همدان (في رحلته شرقاً) ، وكان في زمن للشقاء ، والبرد في تلك الفواحي شديد ، خارج عن حد الوصف ، قطع عليه كثرة الثلج طريق مقصده ، فأقام بهمدان ينتظر زوال الثلج ، وكان نزوله عند رجل عنده خزانة كتب فيها دواوين العرب وغيرها ، فتفرغ لها وطالعها واختار منها كتاب الحاسة ». وفي مؤلفات أبي تمام بقول الآمدي : (ص ٢٣) : « كان أبو تمام مشتهراً بالشعر ، مشغولاً به ، مشغولاً مدة عمره (بتخمينه) ودراسته ، وله كتب اختيارات فيه مشهورة معروفة ، فمنها الاختيار القبائلي الأكبر ، اختيار فيه من كل قصيدة ، وقد مر على يدي هذا الاختيار : ثم اختيار آخر لم يورد فيه كبير شيء للشعراء المشهورين ، ثم اختيار ثالث تُلقت فيه محاسن شعر الجاهلية والإسلام ، وأخذ من كل قصيدة شيئاً حتى انتهى إلى إبراهيم بن هرمة ، وهو اختيار مشهور معروف باختيار شعراء الفحول ، ومنها اختيار تُلقت فيه أشعاراً من العشرة المقالين والشعراء المغمورين غير المشهورين ، وبوبه أبواباً وصدره بما قيل في الشجاعة ، وهو أشهر اختياراته وأكثرها في أيدي الناس ، ويلقب بالحاسة ، ومنها اختيار المقطعات ، وهو محبوب على ترتيب الحاسة ، إلا أنه يذكر فيه أشعار المشهورين وغيرهم من القدماء والمتأخرين ، وصدره بذكر الغزل ، وقد قرأت هذا الاختيار وتلقت منه نفعاً وأبياتاً كثيرة ، وليس بمشهور شهرة غيره ،

(١) هبة الأيام ص ١٠ : وفي هذا الكتاب مناقشات منعمة لدرجات أبي تمام ودفاع مجيد عنه